# هل الإسلام في أزمة؟

علي الصراف
كاتب عراقي

أثارت جملة واحدة من الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون، قال فيها "إن الإسلام دين يعيش اليوم في أزمة"، انتقادات من كل حدب وصوب. مجمع البحوث الإسلامية في الأزهر تقدم الصفوف طبعا، وسرعان ما تبعه الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين. كلاهما يندد بالإرهاب، وكلاهما يُنظّر له في الوقت نفسه، بوسائل التشريع ذاتها التي يتخذ منها الإرهابيون منهجا.

الجملة حتى وإن كانت قد جاءت في سياق يتعلق بمواجهة الانعزالية الإسلامية والتطرف والإرهاب، إلا أن المنتقدين أخذوها بمعزل عنه.

مع ذلك، لا بأس. فلننظر إليها بمعزل. فهل الإسلام دين يعيش في أزمة؟

الإسلام، من حيث الواقع، في أزمة عميقة جدا، وهي ليست أزمة فكر، بل أزمة عقيدة. ولا يفعل منكروها سوى أنهم يدسون رؤوسهم في الرمال، أو يتحاشون البحث عن أسبابها، فيزيدونها عمقا.

لا الجملة، ولا النكران يغنيان عن الواقع شيئا. ذلك لأن الإسلام الحاضر ينشطر على نفسه بوضوح بين مشروعين يصف أحدهما نفسه بأنه معتدل، والآخر ثوري. وكلاهما يكفر الآخر.

هل نحتاج إلى رئيس فرنسي لكي نرى في هذا الانشطار ما نعانيه؟

إسلام الإرهاب، مُستنكر فقط كعمل تطبيقي، أو كأدوات تنفيذية. بينما ثقافته وأسسه هي نفسها ثقافة الشطر الآخر "المعتدل". وهذا وجهٌ آخر للأزمة، ذلك لأن الأسس المرجعية للتطرف لم تتم مواجهتها بحيث يمكن الانفصال عنها أو نبذها. ومن هذه الأزمة ينشأ الافتراض القائل إن جماعة مثل الإخوان المسلمين تنظيم "معتدل"، بينما هي دجاجة تفريخ لكل التنظيمات الإرهابية.

كيف حصل ذلك؟ هل وقع بمجرد الصدفة؟ وهل وقع الالتباس بين الاعتدال والتطرف من دون سبب؟

ما حصل هو أن الفاصل التنفيذي هو وحده الذي وقع تحت سيف الإدانة، وليس مرجعياته الفكرية أو الفقهية.

لم يجرؤ "معتدلو الفقه" المزعومون على إيجاد مخرج من النصوص التي يؤدي التمسك بها، إلى توفير التبرير لأعمال الإرهاب. بعضها نصوص محكمة. وهو ما يبدو واحدا من أهم مصادر المشكلة. ولكنها نصوصٌ بناتُ تاريخ، ولم تكن من دون أسباب خاصة بها. والأهم من ذلك، إنها بمقدار ما كانت مؤشرا لقيم ودلالات، فإن نزع القيم عنها، لم يُفقدها الروح، بل أفقدها المعنى أيضا.

هل الدين نفسه في أزمة؟

لو بقي الدين في حدود نصه المقدس، وفي حدود نظام القيم والمعايير والأخلاقيات التي يؤشر إليها، فإنه ليس في أزمة. ولو أن مسلما تخلى عن كل التفاسير والاجتهادات والافتراضات، واكتفى بالقرآن والسنة، وفهم المعاني والدلالات والقيم والأصول، فإنه ما كان ليجد نفسه أمام مأزق، لا الآن، ولا حتى بعد مليون سنة. في الواقع، فإن بعض قيم الإسلام الجوهرية صارت تفرض نفسها على كل الكرة الأرضية.

الزكاة، على سبيل المثال، بما تهدف إليه، هي أول ضريبة في تاريخ البشرية، لردم الهوة الاجتماعية بين الفقراء والأغنياء. وما من شعب من شعوب الأرض اليوم إلا ويستوفي الضرائب، لهذا الغرض بالذات.

**الإسلام من حيث الواقع في أزمة عميقة، وهي ليست أزمة فكر، بل أزمة عقيدة ولا يفعل منكروها سوى أنهم يدسون رؤوسهم في الرمال أو يتحاشون البحث عن أسبابها فيزيدونها عمقا**

قيم الصدق، والتضامن، والنزاهة، والعدل، حتى وإن كان المسلمون يعانون من ضعفها أو غيابها، فإنها ركائز من دينهم، كما من ديانات أخرى.

وعلى رغم الصورة الزائفة عن نظرة الإسلام للمرأة، فإن القيم التي ينطلق منها ما تزال قيما تحررية، وهي قيم عدل ومساواة، بل إنها من ناحية الإرث، فيها إنصاف زائد عن الإنصاف، على العكس تماما من سائد الاعتقاد.

تعال، أقعد لتحسب أنماط المواريث التي تجني منها المرأة أكثر من الرجل، ولسوف تكتشف أن القصة ليست على الإطلاق "حظ الذكر مثل حظ الأنثيين".

وأحيل هنا إلى كتاب "الميراث بين عدالة الإسلام وجور القوانين الوضعية"، للشيخ أحمد المعبي، الذي أورد 16 حالة ترث فيها المرأة أكثر من الرجل، و4 حالات ترث المرأة نصف الرجل، و10 حالات ترث المرأة مثل نصيب الرجل، و4 حالات ترث المرأة ولا يرث الرجل.

والأمثلة كثيرة، ولكني أورد هذا المثال، ليس من أجل نفسه، وإنما من أجل القول إن الإسلام المتداول لم يعد هو الدين نفسه، بل ما تراكم عليه، من تفاسير واجتهادات وتأويلات، حتى تكاد تدفنه.

في السياسة، ما من أحد أفسد الإسلام، أكثر من شيوخه وفقهائه. بطريقة أو بأخرى، أصبحت الخلافة جزءا من العقيدة. ولكن أنظر في كتاب "الإسلام وأصول الحكم" لعلي عبدالرازق، وسترى كيف أن "القياس" لا الأصول، هي التي حولت الخلافة إلى جزء أساسي من العقيدة، رغم أنه لا ذكر لها في القرآن ولا في السنة. ولقد تم تكفير عبدالرازق وطرده من الأزهر عام 1925 على هذا الأساس.

سبقه إلى "التكفير" عميد الأدب العربي طه حسين، إنما فقط لأنه كتب أطروحته "تجديد ذكرى أبي العلاء"، وتم طرده من الأزهر عام 1908. وعاد ليواجه تكفيره مرة أخرى، من جانب شيوخ الأزهر، عام 1926 عندما أصدر كتابه "في الشعر الجاهلي".

واستنادا إلى المناهج الفقهية ذاتها، ما يزال هناك بيننا اليوم من يحولون الإسلام من حل إلى عقدة، ومن نظام قيم إلى نظام عقوبات، ومن مصدر للطمأنينة إلى مصدر للإرهاب. وعندما يصل الأمر إلى ضفاف النظام السياسي، وعندما يتحول الدين إلى سياسة والسياسة إلى دين فكأنك لا تخلط الحابل بالنابل فحسب، ولكنك تهدد وجود المجتمع نفسه.

وأخذا بما تراكم، فوق الإسلام، يحق للمرء أن يسأل: أي إسلام هذا الذي، حتى إذا أراد أن يثور، فإنه يصبح إرهابا يختص بقتل الأبرياء؟

وأي إسلام هذا الذي يبدو في ثورته نفسها أكثر تخلفا ووحشية وانغلاقا من كل التخلف والوحشية، حتى لكأنه لا يعدنا إلا بالأسوأ.

وأي إسلام هذا الذي لا يستطيع أن ينظر إلى المرأة إلا بوصفها عورة، دع عنك حرمانها من حقوق التعليم والرعاية والمساواة؟ وأي إسلام هذا الذي، في القرن الحادي والعشرين، ما يزال ينظر إليها ككائن لا تجوز له الولاية حتى على نفسه، بينما قدمت البشرية الملايين من الأمثلة الخلاقة للمرأة في كل حقل من حقول المعرفة والسياسة والفكر؟

في الواقع، فإن ما تراكم على الإسلام، انتهى إلى دين جديد. خذ القتل على سبيل التكفير كمثال. بعضنا يؤمن أن الإسلام دين للحكمة والموعظة الحسنة لا دين للقتل؛ وهو كذلك لأنه يترك الخيارات مفتوحة أمام الناس، حتى لو كفروا، ولكن هذا ليس هو "العقيدة" الجارية الآن.

يقول تعالى "وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر" (الكهف 29)، "قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها" (الأنعام 104)، "من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى" (الإسراء 15)، "ولو شاءَ ربكَ لَجعل النّاس أمّةً واحدة ولا يزالون مُخْتلفين (هود:118)، "ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين" (يونس 99)، ثم "لا إكراه في الدين" (البقرة 256).

ولكن، كل هذا لم يُقنع أحدا ممن يحضّون على قتل أهل الديانات الأخرى، بوصفهم كفارا، ولا الذين يفجرون أنفسهم ليقتلوا عابري سبيل لا يعلمون عنهم شيئا من الأساس.

ونحن أمة فيها من الفقر والتخلف ما فيها، ولكن لا يقول لك فقهاء الطغيان وسياسيو الدين إنهم جزء من المشكلة. فالدور التخريبي الذي مارسوه في الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية ما يزال لم تُحصَ عواقبه.

ونحن أمة حروب أهلية، ولكن لا يقول لك شيوخنا إنهم يقفون وراء سفك الدماء بين المسلمين ويشرعون للفتنة بين المسلمين.

وجود الطوائف نفسه، فضيحة، على هذا الدين. فلا تَعجَبْ، إذا أصبح سفك الدماء بينهما أمرا "مشروعا".

وتوجد بيننا دول فاشلة، ومجتمعات فاشلة، حتى ليبدو الإسلام فيها فاشلا هو نفسه. لأنه لم ينجح في حل معضلة، ولا في تحديد اتجاه للمستقبل، ولا تقديم رؤية معاصرة للحياة. وعندما حار فقهاؤه في العثور على جواب بشأن المستقبل، فماذا فعلوا؟ اقترحوا العودة إلى الوراء!

ويفقر الملايين وتُنتهك الحقوق ويختفي العدل ويعم الفساد قمة الهرم، من دون أن يشعر المعنيون بالدفاع عن صورة الإسلام أن الأمر يهمهم أو يشكل تحديا لقيم دينهم. ولا هم نهضوا لمواجهة العلل الكبرى، ليكتفوا بالتحليل والتحريم في الصغائر، ولينشغلوا بالتوافه من قبيل "تحريم الزلابيا" وتحليل "رضاعة الكبير"، بينما الفقر والتخلف والحرمان يقطر من بين أصابع الناس، وبينما الفساد يعتلي القمم، وبينما يغيب العدل عن النظام والمؤسسة.

والمرء لا يمكنه أن يعرف ما قيمة الإسلام من دون نظام للعدل بين الناس. ولكن، بفضل شيوخه وفقهائه ومروجي البُدع فيه، صار دين الحرية دينا للاستعباد، ودين الثورة دينا للردة، ودين التقدم دينا للتخلف، ودين المساواة دينا للتمييز واللامساواة، ودين التنوير دينا للظلام، ودين العدل دينا للطغيان. كل هذا ويقولون إن الإسلام دين لا يعاني من أزمة؟ وكأنهم لا يُبصرون.

ولكن هل تعرف لماذا؟ لأنهم هم الأزمة بما راكموه على هذا الدين، حتى دفنوه، وحتى أصبح غريبا عن نفسه وعن قيمه وأخلاقياته.

نعم، الإسلام دين يعيش في أزمة عميقة. وما من حل لها في الأفق المنظور. والحال الذي نحن فيه، هو أنه ما من محاولة للإصلاح والتفكير إلا وأجهضت وتم تكفيرها.

تخيل لو أن تحرير العقيدة من عقيدة الخلافة قد تحقق منذ العام 1926، فهل كان يمكن لأبي الأعلى المودودي أن يتحول إلى منهج؟ هو الذي أقعد "الخلافة" على مقعد "الحاكمية لله"، لتكون رفضا لحاكمية البشر، وطلب عصيانها والثورة عليها، لأنها كفر، بينما الذين يفرضونها هم أنفسهم بشر.

سلطاتنا في الغالب لا تنظر إلى هذا الوضع على أنه مشكلة عصيبة، لأنها تحسب أن تحالفها مع رجال الدين، سند لها، رغم أنه فخ وقنبلة موقوتة.

هذه القنبلة عندما تنفجر في وجه مجتمعات أخرى، فإنك لن تجد بين منظري الإرهاب الرسميين، إلا من يُدين الوسيلة، لا "العقيدة" التي تقف خلفها.

فإذا كانت الانعزالية الإسلامية، هي ذاتها، ليست سوى انعزالية تكفير، ودجاجة تفريخ طبيعية للإرهاب، فماذا يبقى لدولة مثل فرنسا، أكثر من أن تسعى لتحصن نفسها من عواقبها الوخيمة؟

# أزمة الإسلام أم أزمة المسلمين؟

الحبيب الأسود
كاتب تونسي

قال الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون إن الإسلام يمر بأزمة في كل بقاع العالم، الحقيقة أن المسلمين هم الذين يمرون بأزمة، والمجتمعات الإسلامية هي التي تواجه واقعا متأزما، فهناك اصطدام عنيف بمنجزات العقل والعلم والحضارة ورد فعل متشنج نتيجة العجز عن مواكبة التطور المذهل الذي تشهده المجتمعات المتقدمة، وهناك فشل ذريع في تحديد أسباب الفشل والعجز والانهيار، وتتم محاولات التغطية على كل ذلك بهوس ديني يزعم امتلاك الحقيقة وأبواب الآخرة والعلاقة مع الله والعقاب والثواب ومفاتيح الغيب والشرعية السماوية وحق الخلافة على الأرض وشروط البقاء فيها.

هناك حالة من التمرد الإسلاموي على قيم الدين باسم الدفاع عنه، ودعوات للتصعيد نحو المزيد من العنف وسفك الدماء، وهناك انقسامات داخل المجتمعات المسلمة زادتها وسائل الإعلام ومنصات التواصل الاجتماعي حدة، بعد أن كشفت حجم ومستوى موروثنا من الكراهية والحقد ورفض الآخر والرغبة في إبداء التشفي من المختلف معنا سواء من داخل ثقافتنا أو من خارجها.

لا يستطيع المسلمون نفي تاريخهم الدموي والذي لا يزال يلقي بظلاله على واقع اليوم من خلال هذا الانقسام الطائفي والمذهبي الحاد الذي تلبس بمشاريع قومية وعنصرية وبات جزءا من الصراع الجيوسياسي والإستراتيجي في المنطقة والعالم، كما أدى إلى صراعات داخلية والدفع بدول كانت ذات سيادة ومشاريع وطنية إلى دول فاشلة تقع على هامش التاريخ، وأبدى الإسلام السياسي شراسة في محاولاته الفتك بالدول وأنظمتها ورموزها وخصوصياتها الثقافية والحضارية والاجتماعية، مستفيدا من التناقضات الإستراتيجية بين الدول الكبرى.

لقد تم الاشتغال منذ سبعينات القرن الماضي، في ظل الحرب الباردة، على نشر ما سمي بالصحوة الإسلامية تنفيذا لمخطط أميركي وغربي بهدف ضرب التيارات القومية واليسارية وخاصة المتحالفة منها مع الاتحاد السوفييتي، وقامت أغلب الأنظمة العربية باحتضان قوى الإسلام السياسي ممثلة في جماعة الإخوان، وتدخل الملك فيصل بن عبدالعزيز لدى الرئيس المصري أنور السادات من أجل الإفراج عن القيادات الإخوانية المحكوم عليها في الحقبة الناصرية، وتم عقد أول مؤتمر أممي للجماعة أثناء موسم الحج في العام 1973، ويقول الإخواني الكويتي الدكتور عبدالله النفيسي في كتابه "الفكر الحركي للتيارات الإسلامية" إن المرشد الثالث لجماعة الإخوان حسن الهضيبي "انتهز فرصة الحج في ذلك العام فعقد أول اجتماع موسع للإخوان في مكة المكرمة وكان هذا الاجتماع هو الأول من نوعه منذ محنة 1954، ونظرا لأن معظم الإخوان في الخارج قد هاجروا إلى منطقة الخليج والجزيرة العربية أو البلاد الأوروبية والأميركية فقد تركز عمل لجنة العضوية في تلك المناطق، فتشكلت لجنة الكويت، ولجنة قطر، ولجنة الإمارات، وثلاث لجان للسعودية في الرياض، وفي الدمام، وفي جدة.

وكان من نتيجة تلك الاجتماعات استيعاب المملكة للمزيد من الإخوان المسلمين. وشهدت السعودية في منتصف السبعينات حركة نهضة واسعة بقيادة الملك فيصل كان من نتائجها انفتاح المملكة واستيعابها لمئات الآلاف من الكوادر المؤهلة والمتخصصة في كل المجالات العلمية والصحية والهندسية والإعلامية"، وهو ما تنبّه له الإخوان جيدا فعمدوا إلى إرسال أعداد كبيرة من كوادرهم المؤهلة في تلك المجالات، وعلى رأسها التربوية والتعليمية، وبدأ الإخوان بتشكيل خلاياهم الحركية والتنظيمية في كل مكان وجدوا أنفسهم فيه.

إن ما حدث بعد ذلك، هو انطلاق الترويج لمفهوم الصحوة، وتنفّذ الدعاة داخل مجتمعاتهم، وفتحت خزائن الخليج لدعم الجماعات الإسلامية في المنطقة والعالم، وتحول الصحوة إلى مشروع تجاري ضخم تموله الهبات وما يأتي من الزكاة والصدقات، وظهرت طبقة من رجال الدين الأثرياء، ازدادت ثراء بصفقات القتال المربحة في أفغانستان، والتي صحبتها موجة من فتاوى الجهاد والدعم الإلهي للمجاهدين، والحملات الدعائية الموجهة التي ساهمت فيها عواصم الغرب الليبيرالي، وتحركات الجماعات الدينية في مجتمعاتها تحت شعارات العمل الدعوي لمحاصرة المد الشيوعي ولاستعادة ما أضاعه المشروع القومي الفاشل، والعمل الخيري لسد ثغرات الجهد الحكومي، ما أدى إلى حصول حالة تشوه في بنية الوعي الجمعي لنسبة مهمة من أبناء دول لا تزال في مرحلة التأسيس لثوابتها وقيمها الحضارية بعد الاستقلال.

وساهمت الثورة الإيرانية في العام 1979 في الدفع نحو المزيد من الهوس بفكرة الصحوة بعد أن اعتقد دعاتها من السنة أن وجهها الشيعي قد نجح على يد الخميني، ثم أدى سقوط الاتحاد السوفييتي في العام 1991 إلى اعتقاد الإسلاميين بأنهم قادرون على تغيير العالم بعد انهيار حلف وارسو، ووجدوا دائما الدعم الغربي الذي قدمهم كمناضلين من أجل الحرية، تماما كما حدث بعد 2011 في ليبيا وسوريا، ووجد قادتهم في عواصم الغرب مواطن لهم، وفي مخابراته أجهزة تدربهم على تدمير دولهم ومجتمعاتهم، وفي تقنياته الحديثة أدوات لسلب إرادة البسطاء من أقوامهم وغسل أدمغتهم والدفع بهم إلى ثقافة التكفير والكراهية والتخوين ومنها إلى التفجير والاغتيال والقتل في بؤر التوتر، وتشكيل مجتمعات موازية داخل مجتمعاتهم الأصلية تستثمر في المظلومية وتتظاهر بالفضيلة، وكيانات تخطط للتغلغل في مفاصل الدول التي ينتمون إليها.

وقد نجح الإسلام السياسي، حيثما وجد، في استغلال البنى الفكرية والاجتماعية والاقتصادية الهشة لأعداد كبيرة من المسلمين بالوراثة، فشكل جيوشا من أدعياء التدين، كانت السعودية وقطر والكويت في مقدمة الممولين سواء من خلال القنوات الرسمية أو من خلال الصمت الحكومي على الجمعيات والمنظمات المتخصصة في جمع المال وتوزيعه تحت يافطة العمل الخيري والإنساني الذي لا هو خيري ولا إنساني وإنما هو مرتبط بمشروع عقائدي وسياسي يعتقد أصحابه أنهم قادرون على اختراق المجتمعات وتقسيمها من الداخل بهدف السيطرة عليها لتعويض الإحساس بالعجز عن ملاحقة إنجازات العقل الإنساني.

فرنسا واحدة من الدول التي تعرضت للاختراق، وهي اليوم الأكثر استهدافا في الغرب، واستهدافها نراه من خلال استهداف مصالحها في شمال أفريقيا ودول الساحل والصحراء والشرق الأوسط وصولا إلى أرمينيا الفرانكفونية ذات العلاقات التاريخية والثقافية العميقة بها، وذلك من خلال مشروع تركي إخواني إسلاموي خلافوي بمحرك قومي عنصري طوراني يجد عمقه في الإسلام السياسي وأجنحته الجهادية الإرهابية التي لا تخفي عداءها لباريس ما دفع بالرئيس الفرنسي إلى الخروج بتلك التصريحات الصادمة الجمعة الماضي.

العرب
أول صحيفة عربية صدرت في لندن
1977 أسسها
أحمد الصالحين الهوني

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير المسؤول
د. هيثم الزبيدي

رئيس التحرير والمدير العام
محمد أحمد الهوني

مدراء التحرير
مختار الدبابي
كرم نعمة
حذام خريف
منى المحروقي

مدير النشر
علي قاسم

المدير الفني
سعيدة اليعقوبي

تصدر عن
Al-Arab Publishing House
المكتب الرئيسي (لندن)
The Quadrant
177 – 179 Hammersmith Road
London, W6 8BS, UK
Tel: (+44) 20 7602 3999
Fax: (+44) 20 7602 8778

للإعلان
Advertising Department
Tel: +44 20 8742 9262
ads@alarab.co.uk

www.alarab.co.uk
editor@alarab.co.uk